البيان التصويري للأمثال القرآنية
دراسة موضوعية للمثل في قوله تعالى:
﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

إعداد

د. مريم نافل الدويلة

أستاذ مشارك بقسم التفسير والحديث

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت

Research presented by

Dr. Maryam Nafel Al-Duwailah

Associate Professor – Department of Interpretation & Hadith College of Sharia and Islamic Studies Kuwait University

الملخص

يسهم هذا البحث في بيان الرؤية للكافرين من سورة النور، من خلال البيان التصويري للمثل القرآني الذي يجلي جمال المفردة والتراكيب القرآنية، ويظهر روعتها، ويصور البحث عند التأمل في الآيات السابقة واللاحقة للمثل موضوع البحث كيف أفسد الكافرون الفطرة السليمة وعطلوا وسائل الاستبصار والاهتداء والانتفاع بنور الوحي، وتعاموا عن معالم الرشد الإلهي الذي امتن به الله - تعالى- على عباده.

ولم يكتفوا بذلك الضلال، بل أدخلوا أنفسهم في أوهام تراكمت عليهم بإصرارهم على الكيد والتآمر على دين الله وشرعه وعلى عباده الصالحين ساعين على إشاعة الفاحشة وزعزعة وحدة المجتمع وتماسكه.

ويهدف البحث إلى إبراز أثر الأمثال القرآنية في تصوير وكشف وإبطال عقيدة الكافر وأعماله الحسنة والسيئة، ودلالة الألفاظ في دقة الأمثال التصويرية في القرآن الكريم من خلال دراسة موضوعية للمثل المضروب للكافر في الآية (٣٩) من سورة النور مستخدمة المنهج الوصفي التحليلي لصفات الكافرين في الآيات موضع الدراسة، موضحة ما اكتنزه النص القرآني من وجوه البيان، ودلالته في التعرض لعقيدة وأعمال الكافر، وقد توصل البحث لنتائج أهمها:

القوة التصويرية البيانية للقرآن الكريم حيث قدم لنا تصويرا دقيقا محكما لضلال المعتقد، وبطلان الأعمال، وسوء المصير وهذا التصوير جسد صفات الكافر في صورة محسوسة للتشنيع عليهم.

وحاول البحث أن يصل إلى أنه لا بد من الاستعانة بالمثل في فهم ظاهرة الأعمال الحسنة التي تخرج من الكافر، والاستعانة في رسم معالم التعامل المنضبط لها والحكم عليها وفق الشرع الإلهي

الكلمات المفتاحية: الأمثال - الكافرون- اعتقادهم – سراب بقيعة.

Abstract:

This research contributes to explaining the perspective on the disbelievers in Surah An-Nur through the illustrative depiction of the Qur'anic parable, which illuminates the beauty of Qur'anic vocabulary and structures, showcasing their magnificence. Upon reflecting on the preceding and succeeding verses of the parable under study, the research highlights how the disbelievers corrupted the innate disposition, obstructed the means of insight and guidance, and failed to benefit from the light of revelation. They turned a blind eye to the divine guidance that Allah - Almighty - bestowed upon His servants.

Not only did they engage in this misguidance, but they also immersed themselves in illusions due to their persistent plots and conspiracies against Allah's religion, His laws, and His righteous servants, attempting to spread immorality and destabilize the unity and cohesion of society.

The study aims to highlight the impact of Qur'anic parables in illustrating and exposing the beliefs of the disbelievers, their good and bad deeds, and the significance of the words used in the precise figurative parables in the Qur'an. This is achieved through a thematic study of the parable for the disbeliever in verse 39 of Surah An-Nur, employing a descriptive analytical method to examine the traits of the disbelievers in the verses under study. The research clarifies the rhetorical features embedded in the Qur'anic text, focusing on its implication in addressing the beliefs and actions of the disbelievers.

The study concludes with several key findings, including:

The powerful figurative expression in the Qur'an, which presents an exact and compelling depiction of the corruption of belief, the invalidity of deeds, and the disastrous fate that awaits. This imagery embodies the traits of the disbeliever in a perceptible form to emphasize their wrongdoings.

The study also suggests that the parable must be employed to understand the phenomenon of good deeds emerging from the disbeliever and in formulating how to engage with

such actions in a manner consistent with divine law.

Key words: Parables, Disbelievers, Their Beliefs, Mirage in the Desert.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عباده القرآن ليخرجهم به من ظلمات الكفر إلى أنوار السكينة والإيمان، والصلاة والسلام على من بصَّر أمته بسواء السبيل، وتركها على خير محجة، وأقوم قيل، وأهدى دليل. **وبعد:**

فإن القرآن العظيم لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي معارفه، فمعينه لا ينضب، وعطاؤه لا ينفد.

هذا وبصائر القرآن الكريم قد تنوعت مسالكها وتعددت طرقها في إيصال الهدى للخلق، وأسس السعادة في الدارين، وكان من بين تلك المسالك والطرق ضرب الأمثال، وكان مما ضرب له الأمثال في أحوال طائفة الكافرين واعتقادهم الباطل ومن الآيات التي كشفت أوهام الكافرين وضلال معتقدهم وبطلان أعمالهم وسوء مصيرهم مثلٌ يصور حال الكافرين وأعمالهم في الفاظ تأسر الألباب ببالغ إعجازها، ودقة تجسيدها وذلك في الآية (٣٩) من سورة النور التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] .

وقد اخترت أن يكون عنوان الدراسة الآتي: «البيان التصويري للأمثال القرآنية، دراسة موضوعية للمثل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] .

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في الآتي:

أولا: ما مدى جمال دلالة الألفاظ التصويرية التي يقدمها المثل في الآية (٣٩) من سورة النور.

ثانيا: كيف تعكس الأمثال القرآنية البيان التصويري المشرق للقرآن الكريم؟ وكيف يمكننا استخراج كنوزه منها؟

ثالثا: هل أسهم المثل بدقة في بيان نهاية أعمال الكافر الحسنة؟

أهمية البحث:

١- الإسهام في إبراز جمال دلالة الألفاظ في التصوير القرآني لأحوال الكافرين في هذه المثل.

٢- استكشاف روعة الرؤية القرآنية في ضرب الأمثال لتوضيح حال الكافرين ليحذر المجتمع من أفعالهم وإن كانت حسنة في الظاهر حتى لا يقعوا في فخاخهم فيكونون أبواقًا لهم وهم لا يشعرون.

٣- الاهتمام ببصائر القرآن التي تُبَصِّر الناس بالقضايا الجوهرية التي تلامس واقعهم.

٤- يقرر المثل حقيقة قرآنية قاطعة، تعتبر أساسا من أسس التصور الإسلامي في قبول الأعمال(١).

أهداف البحث:

يسعى البحث لتحقيق جملة من الأهداف؛ منها:

١- الوقوف على معالم منهجية القرآن في الكشف الدقيق لأعمال الكافرين.

٢- التعرف على دلالات الأمثال القرآنية الموضحة لضلال الكافرين في معتقدهم وبطلان أعمالهم وسوء مصيرهم.

٣- إظهار وجوه دقة الألفاظ ودلالاتها في الأمثال القرآنية في تجسيد معتقد الكافرين وأعمالهم على وجه بالغ من الدقة والإحكام والتناسب.

٤- الاستعانة بالمثل في فهم ورسم معالم التعامل المنضبط للأعمال الحسنة التي يقدمها الكافر(٢).

حدود البحث:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [سورة النور: ٣٩].

---

(١) إن الإيمان بالله تعالى، والتصديق بكتبه، اتباع رسل الله، والدخول في دين الإسلام، الذي هو الدين عند الله، ولن يقبل الله دينا غيره يوم القيامة، وإدخالهم جنة الله سبحانه. (تصويبات في فهم الآيات، صلاح الخالدي (ت ١٤٤٣هـ، ص ١٥٣).

(٢) ومن هذا نفهم أن أعمال الكافرين الصالحة غير مقبولة منهم يوم القيامة، ولكن لا يعني هذا عدم قبولها منهم في الدنيا، بمعنى أن الله لا يحاسبهم عليها في الدنيا، إن الله يحاسب هؤلاء على أعمالهم في الدنيا، ويثيبهم عليها في الدنيا، لأنها غير مقبولة يوم القيامة» انظر: تصويبات في فهم بعض الآيات، صلاح الخالدي ت ١٤٤٣هـ، ص ٥٣ باختصار.

منهج البحث:

اعتمدت في كتابة هذا البحث على نوعين من المناهج: المنهج الاستقرائي التتبعي، والمنهج التحليلي.

- أما المنهج الاستقرائي التتبعي فيتمثل في تتبع أقوال المفسرون وأهل المعاني التفسيرية والتشبيه الوارد في الآية الكريمة بحسب ما اطلعت عليه

- وأما المنهج التحليلي: فيتمثل في الوقوف عند ألفاظ المثل، وبيان ما فيها من بلاغة واسرار ولطائف.

الدراسات السابقة:

تعددت الكتابات حول الكفر والكافرين في القرآن الكريم من زوايا مختلفة، ومن أبرز الدراسات السابقة ذات الصلة:

١- «الأمثال في القرآن الكريم» دراسة موضوعية أسلوبية، صديق بوعلام، تناول فيها الباحث دراسة نظرية الأمثال من حيث التعريف والأساليب مع أمثلة بشرح موجز لأمثال قرآنية ونبوية، وتختلف هذه الدراسة بأنها دراسة مركزة على نوع من أنواع منهجية الدراسة التطبيقية وليس النظرية وهي منهجية الموضوع (وهي آية ٣٩ من سورة النور).

٢- «الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للركن الأول من أركان الإيمان» رسالة دكتوراة مقدمة للجامعة الإسلامية، تناول الباحث في الباب الأول منها دراسة نظرية الأمثال، وباقي أبواب الرسالة دراسة لأمثال مختارة الغرض منها عرض قضايا الإيمان، وتختلف هذه الدراسة بأنها دراسة مركزة على دلالة الألفاظ في دقة تصوير المثل.

٣- «البيان التصويري للأمثال القرآنية – دراسة موضوعية للمثلين الناري والمائي»؛ عبد السلام مقبل المجيدي، تناول فيها الباحث بيان الرؤية القرآنية للمنافقين من خلال البيان التصويري الذي يجلي جمال التراكيب القرآنية ويظهر روعتها، ونجد هذه الدراسة العلمية قريبة من بحثنا، لكنها تغايره من جهة حدوده الموضوعية.

خطة البحث:

جاء هذا البحث محتوٍ على:

- المقدمة.

- المبحث الأول: أهم القضايا التي يرتكز عليها البحث وتظهر منها مصطلحاته، وينقسم إلى أربعة مطالب

- المطلب الأول: اعتماد الأسلوب القرآني الطريقة التصويرية.

- المطلب الثاني: تعريف المثل لغة واصطلاحا.

- المطلب الثالث: التصوير القرآني بين الإعجاز والبيان.

- المطلب الرابع: مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها.

- المبحث الثاني: البيان التصويري القرآني لفريق الجهل المركب من الكافرين وينقسم إلى:

- المطلب الأول: في معنى قوله تعالى ﴿والذين كفروا أعمالهم﴾.

- المطلب الثاني: في معنى قوله تعالى: ﴿كسراب بقيعة﴾.

- المطلب الثالث: في معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

- المطلب الرابع: في معنى قوله تعالى: ﴿ووجد اللّه عنده فوفاه حسابه واللّه سريع الحساب﴾.

- الخاتمة: تتضمن أهم النتائج والتوصيات.

- فهرس المصادر والمراجع.

المبحث الأول
أهم القضايا التي يرتكز عليها البحث، وتظهر منها مصطلحاته

وينقسم إلى أربعة مطالب:

المطلب الأول: اعتماد الأسلوب القرآني الطريقة التصويرية في التعبير

من «السمات البارزة للأسلوب القرآني هو اعتماده الطريقة التصويرية للتعبير عن المعاني والأفكار التي يريد إيضاحها وبيانها، سواء كانت معاني ذهنية مجردة أو قصصا غابرة أو حال ومآل أعمال المشركين الكافرين أو مشاهد ليوم القيامة وغيرها من المجالات.

إن الأسلوب القرآني يحمل تاليه إلى أجواء الصورة وكأنه ينظر في تفصيلات الصورة المجسمة واضحة أمامه، وكأن المشهد يجري أمامه حيا متحركا، ولا شك أن الفكرة أو المعنى الذي يراد إيضاحه يكون أقرب إلى الفهم وأوضح في الذهن مما لو نقل المعنى مجردًا من تلك الصور الحية ويكفي لبيان هذه الميزة أن نتصور هذه المعاني كلها في صورها التجريدية ثم نقارنها بالصورة التي وضعها فيها القرآن الكريم»(١).

فمثلا الآية التي بين أيدينا غلب السياق السابق لها أسلوب التمثيل لأحوال المؤمنين، وسرد الحقائق المتعلقة بعالمهم، حيث شبه الله تعالى قلب المؤمن بالنور فقال - تعالى-: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥] ، ثم ذكر الله تعالى صفة من صفاتهم بصورة مدهشة فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٨﴾ [النور:٣٦- ٣٧-٣٨]، ولكن الأمر اختلف في الآيات التي بعدها حيث انتقل بنا إلى تمثيل حال ومآل أعمال الكافرين ولم تذكر صفاتهم الشنيعة؛ لأنها اتضحت من خلال التمثيل فلا

(١) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم، ص ١٢٠، دار التدمرية، الرياض، ٢٠١١م، بتصرف.

حاجة لذكرها.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾ [النور: ٣٩-٤٠] .

هذا كما أنه تغير الأسلوب القرآني في طرح مثلين عن حال ومآل الكافرين دون أن يكون مثلا واحدًا كما هو الحال بالنسبة للمؤمن.

وذلك أن الخطاب القرآني يعالج المعلومات بدقة ويصور للعالم حقيقة الصنف الكافر في المجتمعات فيحرك العقول لتتدبر الكلام الذي يلقى إليهم، وليوضح عقليات الكافرين ونفسياتهم وحالهم ومآلهم بصورة محسوسة مجسدة من خلال ربط ذلك بالطبيعة حولنا بأكثر من مثل فتعدد أوجه التشبيه يعين في تعليم المخاطب والتأثير فيه من حيث أنه إذا استشكل ممثلا به أو تشبيا، بسبب عدم إدراكه له أو بسبب افتقاري له في خلفيته المعرفية لعدم وجود ذلك الممثل به في بيئته التي يعرفها جاء مثل آخر بتشبيه آخر بممثل آخر يعرفه المخاطب فيفهم المثل ويتحقق المطلوب من فهم المثل وتقريب المعنى من خلال تنويع عناصر التمثيل المستوحاة من بيئة الإنسان»[1]، هذا وكلما زاد التدبر والمقايسة في المثل زادت الفوائد من المثل كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ العنكبوت (٤٣).

المطلب الثاني: تعريف المثل لغة واصطلاحًا

أولا: المعنى اللغوي: «(مثل): الميم والثاء واللام: أصلٌ صحيحٌ يدل على مناظرة الشيء للشيء، وهذا مثل هذا: أي نظيره وشبيهه، والمثل: الشيء الذي يضرب لشيء مثلًا، فيجعل مثله، ويطلق على الصفة والعبرة والآية والأنموذج الذي يحتذي به»[2]، يقول الراغب الأصفهاني: «والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة؛ ليبين أحدهما الآخر ويصوره».

ثانيا: المعنى الاصطلاحي: أما المثل في القرآن الكريم: فهو إبراز المعنى في صورة حسية موجزة تكسبه روعة وجمالاً، ولها وقعها في النفس سواء كانت تشبيها أو وقولًا مرسلا والمثل بهذا

(١) انظر: المدلولات التربوية للأمثال القرآنية ، (ص ١٠٨).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص٧٦٠).

المعنى لا يشترط أن يكون له مورد، كما لا يتشرط أن يكون مجازًا أو مركبا»[١].

المطلب الثالث: التصوير القرآني بين الإعجاز والبيان

التصوير القرآني: هو: «الأداة المفضلة في أسلوب القرآن؛ فهو يعبر بالصورة المحسَّة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور؛ وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة»[٢].

فمن وجوه البيان التصويري تجسيد المعاني وإحضار المواقف والتصرفات في مشاهد حاضرة حية حسية وصور موحية دالة للمعاني بصورة موجزة لها وقعها في النفس.

تعريف الإعجاز: لغة واصطلاحًا: تعريف الإعجاز لغة: «مصدر على وزن إفعال من العجز، وفعله أعجز والفعل الثلاثي المجرد عجز»[٣]. فالعين والجيم والزاي أصلان صحيحان يدل أحدهما على الضعف والآخر على مؤخرة الشيء.

فالأول: عجز عن الشيء يعجز عجزًا، فهو عاجز أي ضعيف. وقولهم عن العجز نفيض الحَزم فمن هذا؛ لأنه يضعف رأيُه... وأما الأصل الآخر فالعَجزُ: مؤخَّر الشيء»[٤]، والعَجْزُ أصلُهُ التأخرُ عن الشيء، وحصولهُ عندَ عَجزِ الأمر أي مؤَخِّرِهِ كما ذُكرَ في الدُّبُر، وصار في التَّعارف اسمًا للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القُدْرَةِ، قال تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ [سورة المائدة: من الآية: ٣١].

وأعجزت فلانًا وعجزته، وعاجزته: جعلته عاجزًا قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [سورة التوبة: من الآية ٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾[٥]» [سورة الشورى، من الآية: ٣١].

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، (ص ٢٨٣).

(٢) التصوير الفني في القرآن – سيد قطب-(ص ٣٦).

(٣) لسان العرب، للإمام ابن منظور، باب العين، مادة: عجز (٥٨/٩)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. الأولى، ١٩٩٥م.

(٤) معجم مقاييس اللغة، للإمام أبي الحسين ابن فارس، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، باب العين والجيم وما يثلثهما، مادة (عجز) (٢٣٢/٤، ٢٣٣).

(٥) المفردات في غريب القرآن، للإمام أبي القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني، كتاب العين، مادة عجز، (ص ٣٢٢).

تعريف الإعجاز اصطلاحا: «هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل، أو رأي، أو تدبير»[١]، وعرف الجرجاني الإعجاز في الكلام فقال: «هو أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته»[٢].

«والمعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة»[٣] وسميت معجزة؛ لأنه البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها»[٤].

هذا وأوجه الإعجاز القرآني كثيرة لا حصر لها فقد أفرد لها العلماء [كالباقلاني في «إعجاز القرآن» والخطابي في كتابه «بيان إعجاز القرآن» والرماني في كتابه «النكت في إعجاز القرآن»، والزركشي في كتابه: البرهان في علوم القرآن، والسيوطي في كتابه «معترك الأقران في إعجاز القرآن.] بتصنيف إعجاز القرآن، وخاضوا في وجوه إعجازه كثيرًا، وأنهى بعضهم في وجوه إعجازه إلى خمس وثلاثين وجهًا»[٥]، والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه[٦].

قال ﷺ: «ما من نبي إلا أعطي من الآيات ما مثلُهُ آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[٧].

قيل: إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها. ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقُه العادة في أسلوبه وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار، إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه»[٨]، وما الإعجاز التصويري إلا أحد أنواع الإعجاز التي تفوَّق بها القرآن العظيم على سائر الكتب، بل على سائر الكلام.

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للإمام الفيروز أبادي (٦٥/١) .

(٢) التعريفات، الجرجاني، (ص ٨٣).

(٣) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، (٢٢٨/٢)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (٨٦/١)، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٦م.

(٥) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، للإمام السيوطي، (٥/١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

(٦) انظر: المرجع السابق (ص٥).

(٧) انظر: أخرجه البخاري في صحيحه، ٦٦ – كتاب فضائل القرآن، ١- باب كيف نزول الوحي، وأول ما نزل، (٣/١٠)، فتح الباري، دار الفكر، بيروت ١٩٩٦م.

(٨) انظر: الإتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين السيوطي، (٢/ ٢٢٨)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م – وانظر: فتح الباري على صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٨/١٠)، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م.

هذا وقد استبدلت كلمة «الإعجاز»[١] بكلمة «البيان» لأنها أعم منها فالإعجاز يقتضي وجود براهين عقلية لإثبات وجوده أما البيان فهو «الدلالة الواضحة عقلية كانت أو حسية قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف: ٧٣]»[٢].

المطلب الرابع: مناسبة الآية لما قبلها

ورد المثل في سورة النور في سياق المثل الذي ضربه الله لنوره حيث ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى واليقين والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقف من زيت طيب وذلك كالقنديل مما يجعل المؤمن يمشي على يقين وبصيرة مما أوجبه الله تعالى من الأحكام الشرعية، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ثم أتبع سبحانه ذكر جزاء أعماله ومحل هذا القلب المؤمن وموطنه وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) ... ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨] أعقب ذلك بضده من حال أعمال الكافرين ومآلها التي يحسبونها قربات تقربهم إلى تعالى وما هي بمغنية عنهم شيئا على عادة القرآن في إرداف البشارة بالنذارة والترغيب بالترهيب ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله عزَّ وجلَّ بين الخوف والرجاء فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

---

(١) لم ترد هذه اللفظة (المعجزة) لا في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة وإنما ظهر هذا المصطلح في وقت متأخر بعض الشيء عندما دونت العلوم ومنها علوم العقائد في أواخر القرن الثاني الهجري، لذا نجد أن القرآن الكريم قد استعمل كلمة البينة، والآية، والبرهان وهي ألفاظ أوضح في بيان ماهية الحجة التي كان يستند إليها الأنبياء عليهم السلام في إثبات نبوتهم ولعل اختيارهم لهذا المصطلح بدلا من البينة، والآية، والبرهان للخروج من الدلالات المشتركة في الكلمات السابقة. انظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، (ص : ١٣- ١٤) بتصرف واختصار) .

(٢) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، دار التدمرية، الرياض، ٢٠١١م)، (ص ١٣).

مناسبة الآية لما بعدها: «لما ضرب الله تعالى مثلا حسيا لذوي الجهل المركب ضرب مثلا آخر حسيا لأصحاب الجهل البسيط وهم الطماصم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر والصم البكم الذين لا يعقلون، فكل واحد من هؤلاء. لا يدري أين يذهب ولا هو يعرف حَالَ من يقوده فهو يتقلب في خمسة من الظلم: كلامه ظلمةٌ، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومعبره يوم القيامة إلى الظلمات، إلى النار» ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ [النور: ٤٠](١).

فباءوا بالخيبة فيما ابتغوا مما عملوا حتى عدموا فائدته لأن الله لم يخلق في قلوبهم الهدي حين لم يوفقهم إلى الإيمان فقال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٦/ ٦٥).

المبحث الثاني
البيان التصويري القرآني لفريق الجهل المركب من الكافرين

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، وينقسم إلى أربعة مطالب.

المطلب الأول: في معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ﴾

قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الواو استئنافية.

والكفر معناه لغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الزارع كافرا؛ لأنه يستر البذر ويغطيه، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: الآية ٢٠]، أي: أعجب الزُّراع، ومنه سميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه.

والكفر شرعا: نفي وجود الله تعالى أو ربوبيته أو ألوهيته، أو أسمائه أو صفاته أو شريعته.

هذا وقوله ﴿ كَفَرُوا ﴾ هم أصحاب الجهل المركب هم «الذين يجهلون الحق ويعادونه ويعادون أهله بدون تدبر ولا تفكر ولا إمعان نظر، وينصرون الباطل ويوالونه ويوالون أهله وهم يحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الضالون المكذبون»(١).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ﴾: «عطف على ما قبله، من باب عطف القصة على القصة، أو مقدر يساق إليه ما قبله، كأنه قيل: الذين آمنوا أعمالهم حالًا ومآلًا كما وصف ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ﴾.

هذا والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مبتدأ وخبره جملة ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ وجعل المسند إليه ما يدل على ذوات الكافرين ثم بنى عليه مسند إليه آخر وهو ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾»، ويظهر التشويق جليا أنه سبحانه وتعالى «لم يجعل المسند إليه أعمال الذين كفروا من أول وهلة لما في الافتتاح بذكر الذين كفروا من التشويق إلى معرفة ما سيذكر من شئونهم ليقرر في النفس كمال التقرير وليظهر أن الذين كفروا حظًا في التمثيل بحيث لا يكون المشبه أعمالهم خاصة.

(١) انظر: تفسير القاسمي محاسن التأويل (٧/ ٣٩٤)

فلفظ «الذين كفروا» يصور حال هؤلاء الكافرين أصحاب الجهل المركب الذين استكثروا وحرصوا على الأعمال الحسنة مع ظنهم أنها تقربهم إلى رضا الله تعالى كصلة الأرحام وفك العاني وسقاية الحاج وعمارة البيت وإغاثة الملهوف وقرئ الضيف ونحو ذلك فكان الإتيان بالموصول وصلته إيماء إلى وجه بناء الخبر وهو أنه من جزاء كفرهم بالله فيكون افتتاح الكلام بهذا الوصف ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إشارة إلى أنه ابطال لشيء اعتقده الذين كفروا»[١].

يقول مقاتل: إن هذه الآية نزلت في شيبة بن ربيعة كان يترهب متلمسا الذين فلما خرج -صلى الله عليه وسلم- كفر شيبة[٢].

وسواء كان هذا هو السبب أو غيره، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولهذا ذهب أكثر المفسرين[٣] أن المراد بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾ أنهم صنف من الكفار طلبوا العلم والإيمان والقربة إلى الله تعالى في غير ما جاء به الأنبياء فاتبعوا الشبهات وركنوا إلى عقولهم فعملوا أعمال حسنة في الظاهر وباطنها الفساد ويحسبون إنهم يحسنون صنعا، فهم بذلك يجتهدون في كفرهم وفي ضلالهم ويحسبون أنهم مهتدون.

وعليه فإن المراد بـ«أعمالهم» هنا: الأعمال الصالحة التي كانوا يعملونها في الدنيا كالإحسان إلى الفقراء والمساكين وصلة الأرحام وما يشبه ذلك.

وهكذا هي أعمال المشركين التي يظنون أنها مقبولة كما هو الحال بالمشركين في عهد رسول الله ﷺ، يقول ابن عاشور عند هذه الآية: «إنما كان المشركون يتعقبون أخبار المسلمين في مهاجرهم ويتحسسون ما نزل من القرآن – هذه السورة نزل أكثرها عقب الهجرة- كانوا يقولون: نحن نعَمّرُ المسجدَ الحرامَ ونَطُوفُ ونُطعِمُ المِسكينَ ونَسْقِي الحاجَّ ونُقْري الضَّيفَ، كما أشارَ إليه قولُهُ تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَآجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩] يُعدُّونَ أعمَالًا من أفعال الخيرات فكانت هذه الآيات إبطالا لحسابهم»[٤].

فكل عمل لم يكن خالصًا لوجه الله تعالى ولم يكن وفق ما جاء به الشرع فإن عمله كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] قال ابن المبارك: هي

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٨/ ٢٥١).

(٢) انظر: التفسير الوسيط (٦/ ١٤٣٢).

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية، (٥/٣٧٦ – ٣٧٧) و (٧/٢٨٥)، مجموع الفتاوى، (٤/٧٥)، اجتماع الجيوش، ابن القيم (٩،١٠)، مفاتيح الغيب، الرازي (٢٤/٩).

(٤) انظر: التفسير الوسيط (٦/ ١٤٣٢).

الأعمال التي عملت لغير وجه الله، وقال مجاهد: هي الأعمال التي لم تقبل»[١].

هذا وقد ذكر ابن كثير عند هذه الآيات: الحديث الطويل الذي ورد في الصحيحين عن اليهود والنصارى وقال فيه صلى الله عليه وسلم: «فيدعي اليهودُ فيقال لهم: ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد عزيز بن ابن الله. فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا فاسقنا. فيشار إليهم ألا تَرِدون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون في النار. ثم يُدعى النصارى فيقال: لهم ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال: لهم كذبتم ما اتخذا الله من صاحبة ولا ولد. فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا. قال: فيشارُ إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا، فيتساقطون في النار..... »[٢].

والحاصل هو التنبيه على مضمون أعمالهم التي اعتقدوا أنها شيء فلما عرضت على الملك الحكيم العدل الذي لا يظلم أحد إذ أنها لا شيء بالكلية وشبهت في ذلك بالسراب الذي لا يقدر صاحبه على شيء بالكلية وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي: وهو المتابعة لشرع الله تعالى والإخلاص.

وعليه فكل عمل لا يتحصل وفق هذين الشرطين فهو باطل، فأعمال الكفار على تعدد أجناسهم وتشعب مصادر ضلالهم وشرورهم في كل زمان ومكان لا تخلو من واحد من هذين الشرطين، وقد تجمعهما معا فتكون أبعد من القبول حينئذ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله-: «ومن تمام ذلك أن يعرف أن للضُّلَّال تشابهًا في شيئين: أحدهما: الإعراض عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والثاني: معارضته بما يناقضه، فمن الثاني: الاعتقادات المخالفة للقرآن والسنة، فكل من أخبر بخلاف ما أخبر به الرسول عن شيء من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر أو غير ذلك فقد ناقضه وعارضه، سواء اعتقد ذلك بقلبه أو قاله بلسانه.

وهذا حال كل بدعة تخالف الكتاب والسنة، وهؤلاء من أهل الجهل المركب الذين أعمالهم كسراب بقيعة»[٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن تيمية (٥/١٢).

(٢) أخرجه: البخاري كتاب التفسير، باب: إن الله لا يظلم مثقال ذرة، ح(٤٥٨١)، فتح الباري (٢٤٩/٨).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٣٧٦ – ٣٧٧).

وقال ابن القيم رحمه الله: « ... القسم الثاني: أهل الجهل والظلم، الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به والظلم باتباع أهوائهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [سورة النجم: ٢٣]».

وهؤلاء قسمان: أحدهما: الذين يحسبون أنهم على علم وهدى، هم أهل الجهل والضلال، فهؤلاء أهل الجهل المركب الذين يجهلون الحق ويعادونه ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالون أهله وهم يحسبون أنهم على شيء ألا أنهم هم الكاذبون، فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائي السراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا....»[١].

هذا وقد بين الله تعالى حال ومآل أعمال هؤلاء بتصوير الحقائق المجردة تصويرًا لا يبعد عن الواقع المحسّ، بمعنى أن ما فيه من تشبيه أو استعارة أو كناية إنما هو من مقومات الوصول إلى الحق والحقيقة بعيدا كل البعد عن الخيال الواسع المقصود لذاته بغية الإمتاع الذهني.

هذا وأساس التمثيل السعي لتقريب المعاني وتجسيدها بصورة محسوسة داخلة تحت إدراك الحواس من خلال ربط ذلك بالطبيعة حولنا، هذا وحينما نتدبر هذا المثل نشعر بصور واضحة تتوالى أمامنا بما يدعو للاستمتاع والانهماك كليا في المتابعة والاستغراق في التأمل؛ فانظر كيف صور المثل القرآني أعمال الكافرين ومآلها في المطالب الآتية.

المطلب الثاني: معنى قوله تعالى ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾

أول ما يسترعي النظر أن من خصائص التشبيه في القرآن أنه يستمد عناصره من الطبيعة، وذلك هو سر خلوده، فهو باق ما بقيت الطبيعة، وسر عمومه للناس جميعا... فلا نجد في القرآن تشبيها مصنوعا يدرك جماله فرد دون فرد آخر»[٢] فالسراب متعارف على أنه يُسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري عند العربي وغيره، وعلى مدى العصر فإذا شبهت به أعمال الكفار ظلت الصورة عالقة في الأذهان ما دام المرء على وجه البسيطة.

فقوله تعالى: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾: «جاء التشبيه هنا تشبيه ما لا تقع عليه الحاسة بما تقع عليه، فقد أخرج ما لا يحس – وهو الإيمان- إلى ما يحس وهو السراب»[٣]، فالسراب: «ما نراه نصف

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص ٩ – ١٠).

(٢) انظر: من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي،(ص ١٥١).

(٣) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، (٢٠٦/١).

النهار كأنه ماء»[١] أو «السراب ما يرى في الفلوات المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يُسربُ على وجه الأرض كأنه ماء يجري.

والآل ما كان كالماء بين السماء والأرض وذلك يكون أول النهار، يرى مع كل شيء ضحى.

والقيعة أو القاع هو: المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا واد ولا زرع فيه ولا شجر»[٢]

هذا ويبرز جمال المعنى بصورة أكبر مجيء لفظ (بقيعة) بعد لفظ كسراب، فالباء في قوله ﴿بِقِيعَةٍ﴾ بمعنى في، والجار والمجرور وصف لسراب وهذا من بلاغة القرآن ودقته أن وصف السراب بوصف كاشف؛ لأن السراب لا يكون إلا في قيعة، وهذا كقولهم في المثل: «وهو فقع في قرقر» فإن الفقع لا ينبت إلا في قرقر»[٣].

هذا ويستنبط من التشبيه بالسراب: شروق الشمس الساطع، ذلك أن السراب لا يكون إلا والشمس مشرقة قد اشتد حرها كما دل على ذلك الوصف اللغوي والعلمي – كما سنبين ذلك لاحقا-.

ويؤخذ كذلك من دلالة اللفظ ﴿بِقِيعَةٍ﴾: شدة حاجة اللاهث إلى الماء، وأن حياته متوقفة عليه فليس حوله ما يسد رمقه فهو في أرض هالكة انفرجت عنها الجبال والآكام فإذا لم يجد الماء فهو هالك.

قوله : ﴿يحسبه﴾: أي: يظنه.

حسب، يَحْسَبُ (كَرَغِبَ، يرغَبُ): أي ظن يظن.

قال الفراء: «حسبت الشيء: ظننته. أحسِبُه وأحسبَهُ، والكسر أجود اللغتين»[٤]

ويبين الراغب الأصفهاني الفرق الدقيق بين حسب وظن فيقول: «والحسبان: أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، فيحسبه ويعقد عليه الإصبع، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك، ويقارب ذلك الظنّ، لكن الظن أن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر»[٥].

---

(١) انظر: القاموس المحيط (٢/٥٤٣).

(٢) انظر: التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم، (ص٣٩٩)، وتفسير القاسمي محاسن التأويل (٧/ ٣٩٥).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٨/ ٢٥٢).

(٤) انظر: تهذيب اللغة (٤/ ١٩٢).

(٥) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص٢٣٤).

ولهذا نجد أن هناك فرق بين حسب وظنَّ، «فالظن: هو رجحان كفة الإثبات على كفة النفي. والحسبان: هو الظن القائم على حساب حسي، وقلبي، أو الاعتقاد القائم على النظر والتجربة، ويسمى الظن حسبانًا من كثرة الاستعمال»(١).

فناسب اختيار لفظ يحسبه هنا في الآية لمناسبتها ودلالتها لاعتقاد الكافر القائم على الظن والهوى والإعراض عن الإيمان والعلم الذي جاء به المرسلون القائم على الحق واليقين.

هذا كما جاء اللفظ «يحسبه» بصيغة المضارع للدلالة على تجدد وتكرار ظن الكافر الذي اتبعه ولم يتثبت منه، بل جرى نحو السراب بمجرد أن لاح له.

وقوله ﴿الظمآن﴾: أي «العطشان، قال الزجاج: هو أشده وقد ظمئ فلا يظمأ وطماءً وظماءة إذا اشتد عطشه، وفي التنزيل: ﴿لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ﴾ [التوبة: ١٢٠](٢).

وتخصيص الظمآن بحسبان السراب ماء مع أن الريان يتراءى له السراب كأنه ماء، فيه دلالة إلى أمرين:

١- تحقيق التشبيه المبني على الطمع، لأن الظمآن أشد حرصًا عليه وأكثر تعلق قلب به، ولأنه كذلك أحوج إليه من غيره فالتشبيه به أتم بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشبه وهو الابتداء المطمع الانتهاء المؤيس»(٣).

٢- دلالة لفظ صيغة المبالغة (ظمآن)

فقد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ولو قيل يحسبه الرائي ماء لكان بليغا وأبلغ منه لفظ صيغة المبالغة «ظمآن» كما وردت في القرآن الكريم الدالة على شدة الحاجة فكيف وقد تضمن مع ذلك حسن النظم وصدق التمثيل وصحة الدلالة.

قوله «ماء»: الماء هو السائل المعروف الذي يروي العطش وهو سبب للحياة الدنيوية وعدمه سبب للموت، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]

فالظمآن بحاجة شديدة إلى ماء ليبقى على قيد الحياة يقابله في الممثل له الإيمان والعلم فهما اللذان يرويان القلوب والأرواح فهما سبب للسعادة الدنيوية والحياة الأخروية الأبدية.

فجاء الوصف دقيقا لظاهرة السراب «التي يشترط لحدوثها شروط ذكرت في الآية وهي: وجود أرض مستوية، وجود الجو الحار، وجود الهواء المتحرك، وهذه الشروط الضرورية لحدوث ظاهرة

(١) انظر: معاني النحو: فاضل السامرائي، (٢/ ٢٢)، تفسير القرآن الثري الجامع، محمد الهلال (٨/ ٨٥).

(٢) انظر: لسان العرب، مادة (ظمأ) (١/ ١١٦).

(٣) انظر: تفسير حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري، (٣٤٣/١٩) بتصرف.

السراب والتي لم تكن معلومة بدقة في زمن التنزيل يشملها الوصف القرآن فشرط وجود الأرض المستوية أشار إليه الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿بِقِيعَةٍ﴾، وشرط حرارة الجو أشار إليه بلفظ ﴿يحسبه الظمآن﴾ ولا يكون الظمأ الشديد إلى في الجو الحار، وشرط وجود الهواء المتحرك وتموجه أشار إليه بلفظ «ماء»، وهنا يتراءى للناظر بهذه البقعة تموج طبقات الجو بحيث يتخيل انعكاس صور مما يوقع في حسبانه أنه مكان ماء، وهي في الواقع إنما حصل ذلك نتيجة تموج تيارات الحمل المتولدة من موجات الحرارة في تلك البقعة.

وهذه الظاهرة تظهر مع هذه الشروط من ثبات المسافة بين عين الناظر ومكان السارب الثابت حيث تنتقل الصورة التي تترآى للناظر مع تحركه وكلما ظن أنه وصل إلى المكان الذي فيه الماء لم يجد شيئا فهو ما عبره القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾[1] .

والذي يهمنا من هذا التشبيه البليغ حقيقة أن الله تعالى فطرهم على فطرة سليمة وأرسل لهم خاتم النبيين والرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

فأعرضوا عن تعلم الهدي الرباني وتقربوا إلى الله تعالى بغير شريعته فكان الجزاء من جنس العمل، فأعمالهم كسراب بقيعة لا نفع منها بالكلية.

المطلب الثالث: في معنى قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾

لما اغتر الكافرون بأعمالهم الحسنة التي يظنون أنها تقربهم إلى الله تعالى، حتى إذا جاءوا يوم القيامة لم يجدوا منها شيئا، فكان في السراب الأمل المطمع ذا النهاية المؤيسة ولأداء هذا المعنى قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

قال ابن جرير: «فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فإن لم يكن السراب شيئًا، فعلام أدخلت الهاء في قوله ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾؟ قيل: إنه شيء يرى من بعيد كالضباب، الذي يرى كثيفا من بعيد، والهباء، فإذا قرب منه المرء رقَّ وصار كالهواء، وقد يحتمل أن يكون معناه حتى إذا جاء موضع السراب، لم يجد السراب شيئًا، فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه».

يقول الشنقيطي معلقًا على ابن جرير: والوجه الأول أظهر عندي، وعنده بدليل قوله أو قد يحتمل أن يكون معناه»[2].

(١) انظر: الشبكة العنكبوتية، المركز الدولي للأبحاث، الإعجاز العلمي، اعداد: أ. د. يحيى وزيري].

(٢) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/ ٢٧٠)

أقول ولا مانع من إرادة المعنيين، يقول ابن عاشور:

«و(حتى) ابتدائية فهي بمعنى فاء التفريع، ومعنى الظمآن في السراب يحصل بوصوله إلى مسافة كان يقدرها مبدأ الماء بحسب مرأى تخيله، كأن يحدده بشجرة أو صخرة. فلما بلغ إلى حيث توهم وجود الماء لم يجد الماء، فتحقق أن ما لاح له سراب، فهذا معنى قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾، أي إذا جاء الموضع الذي تخيل أنه إن وصل إليه يجد ماء. وإلا فإن السراب لا يزال يلوح له على بُعد كلما تقدم السائر في سيره. فضرب ذلك مثلا لقرب زمن افضاء الكافر إلى عمله وقت موته حين يرى مقعده من النار فيعلم أن ما هو مقبل عليه أشد مما هو عليه أو في وقت الحشر. بخلاف ما كان يظن ويؤمل»(١).

يقول البقاعي عند هذه الآية: «فلم يفيده قصده غير زيادة العطش بزيادة التعب وبعده عن مواطن الرجاء، فيشتد يأسه، وتنقطع حيله فيهلك، وهكذا الكافر يظن أن أعماله تجديه شيئا فإذا هي قد أهلكته»(٢)، «حيث تأخذه زبانية العذاب إلى نار الجحيم فيسقون ماء حميما، فتتقطع أمعاءهم، وذلك الماء الذي سُقُوه هي تلك العلوم التي لا تنفع، والأعمال التي كانت لغير الله تعالى صيرها الله تعالى حميما سقاهم إياه كما أن طعامهم من ضريع لا يُسمن ولا يغني من جوع »(٣).

فكان السبب الأساسي في ضلال المضلين هو إعراضهم عن الهدي الذي أنزله الله تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وطلبهم للإيمان والعلم من غيره مصدره الصحيح فاتبعوا الأهواء والشبهات واجتهدوا في عملها إلا أن ذلك لا يغير من نتيجة الغير موافق للهدى الذي أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ فكانت النتيجة هي بطلان أعمالهم.

ولك -أخي الكريم- أن تتخيل دقة التصوير القرآني لهذا المشهد الذي انتهى بخيبة أمل هذا العطشان الذي يظن السراب ماء ويركض وراءه حتى إذا جاءه لم يجده شيئا فتهلك نفسه من الآهات والحسرات والعطش وهكذا أعمال الكافر يوم القيامة يظن عمله نافعا سواء ما كان منها ما يؤجر عليه المؤمنون كالصدقات وإقراء الضيف ونحو ذلك. قال تعالى: {أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر} [التوبة: ١٩] أو مما يزعمون أنهم يتقربون به إلى الله تعالى كاتخاذ الشركاء فإنهم يقولون: {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} [الزمر: ٣] أو

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٨/ ٢٥٣).

(٢) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٣/ ٢٨٤).

(٣) انظر: التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم، (ص٣٩٩).

غير ذلك، فإنهم لا يجدونها شيئا، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: {مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدته به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال المبين} [إبراهيم ١٨]

وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف : ١٠٣- ١٠٤]

وهم الذين عنى بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] وهم الذين عنى بقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] ، قال ابن كثير عند تفسير الآية السابقة:

«وهذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم، شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصًا، وعلى الشريعة المرضية، فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلوا من واحد من هذين وقد تجمعهما معا فتكون أبعد من القبول حينئذ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ ... » وذلك أنهم عملوا أعمالًا اعتقدوا أنها على شيء، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحدًا إذا ها لا شيء بالكلية، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المترفق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية، كما تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيْحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ [سورة إبراهيم: ١٨].

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤] (١).

هذا وظن الكافر أن أعماله الحسنة، حق لو حسن قصده لا يعتبر في تصحيح أعمالهم، فقد دلت آيات القرآن أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور: الأول: موافقته لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لأن الله يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٢).

الثاني: أن يكون خالصا لله تعالى؛ لأن الله – جل وعلا- يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة : ٥]

الثالث: أن يكون مبنيا على أساس العقيدة الصحيحةَ، لأن الله تعالى يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧] فقيد ذلك بالإيمان، ومفهوم المخالفة أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح»[١].

المطلب الرابع: معنى قوله تعالى ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ﴾ معطوف على جملة «لم يجده» فهو داخل في التشبيه متمم له [٢]، أي: «وجد أمر الله عند حشره، الثاني: وجد الله عند عرضه»[٣]، وفي الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[٤] .

وهذه الآية من التصوير المرعب للكافر ما فيها فإن نهاية أمره ليس هو الخيبة والقنوط فقط، بل يعتريه سوء الحال والمآل ما يفوق خيبة وأمل الظمآن حين يئس من أن يجد الماء.

هذا وقد فاته أنه قد جوزي على عمله الذي يظن أنه حسنا في دنياه وما هذا إلا تفضلا ومنة وعدلًا من الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

يعني: من كان يريد بعمله الدنيا، فعبر بالنعت عن الاسم ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ من عرض الدنيا... لمن نريد» فيه قولان: أحدهما: لمن نريد هلكته، قاله أبو إسحاق الفزاري، والثاني: لمن نريد أن نعجل به شيئًا، وفي هذا ذم لمن أراد بعمله الدنيا، وبيان أنه لا ينال مع ما يقصده منها إلا ما قدر له، ثم يدخل النار في الآخرة»[٥].

قال ابن جرير: «هذه الآية لمن لا يوقن بالمعاد»[٦].

---

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٤٢٣).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢/ ٣٧٥).

(٣) انظر: النكت والعيون (١٠٩/٤).

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب: الرقاق، باب: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ح (٦٥٠٧)، صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، ح (٢٦٨٣).

(٥) انظر: التحرير والتنوير (٢٤/ ١٤٠).

(٦) انظر: جامع البيان، الطبري (٤٠٨/١٧).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها»(١) .

عن عائشة – رضي الله عنها- قالت: قلت يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه، قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»(٢)، قوله ﴿ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ «أي الذي يستحقه كل كافر نتيجة عمله كاملاً غير منقوص فلم يقل سبحانه فعذبه أو أدخله النار أو نحو ذلك وإنما جاءت الآية بختام يناسب عمل جميع الكفار، على اختلاف دوافعهم وأحوالهم وأسباب كفرهم، إذ منهم الأئمة الداعون إلى الضلال، ومنهم المقلدون ونحو ذلك فلم يحدد سبحانه وتعالى: عقابا بعينه، بل بين ذلك بلفظ عام فقال تعالى: ﴿ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾»

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩]

أي لكل عذاب بحسب عمله، لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها»(٣)، قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ تذييل عام في حساب الخير والشر(٤)، والمعنى: «والله سريع حِسابه؛ لأنه تعالى ذكره لا يحتاج إلى عقد أصابع ولا حفظ بقلب ولكنه عالم بذلك كله قبل أن يعمله العبد، ومن بعد ما عمله»(٥) ، كما أن من سرعه حسابه – سبحانه وتعالى- أن يجد الإنسان في حياته شيئا من آثار وجزاء أعماله، وهو سبحانه وتعالى أيضا يحاسب الخلائق على وجه السرعة، قال تعالى: {وهو أسرع الحاسبين} [الأنعام: ٦٢]

هذا وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ معطوفة على جملة ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ حيث انتقل الكلام من المثل إلى الممثل له فكأنه عين الممثل له وهذا من خصائص أمثال القرآن الكريم الرائعة التي أظهرت «صدق المماثلة بين المثل والممثل له، ويظهر لنا أيضًا

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا ، ح (٢٨٠٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب: من مات على الكفر لا ينفعه عمل، ح(٢١٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٦٢).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (١٨/ ٢٥٤).

(٥) جامع البيان، الطبري، (٣٢٧/١٧).

عنصر البناء على المثل والحكم عليه كأنه عين الممثّل، على اعتبار أن المثل كان وسيلة لإحضار صورة الممثل له في ذهن المخاطب ونفسه. وإذا حضرت صورة الممثّل له حسن طي المثل، وهذا ما يلاحظه في قوله: ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ بعد قوله: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فالنص ينتقل بشكل مفاجئ من المثل إلى الممثّل له، ويأتي ترتيب النتيجة المقصودة على المثل كأنه عين الممثّل له.

ويظهر لنا أيضًا من الخصائص حذف مقاطع من الصورة التمثيلية اعتمادًا على ذكاء أهل الاستنباط، وكذلك حذف مقاطع من الممثّل له»، ففي هذا المثل أبرزت صورة السراب، ثم صورة الظامئ الذ ظنه ماءً ثم خيبته عند وصوله إليه، وحذف ما عدا ذلك لأن الخيال يتم رسمها.

وفي الممثّل له لم يذكر إلا عمل الذين كفروا، وطوى ما عدا ذلك؛ لأن الفكر قادر على أن يستدعيه، وهذا من بلاغة القرآن»[1]، هذا وقد ظهر في البيان التصويري في هذا المثل التشخيص وجعل الصورة المتخيلة كالمحسوسة، وتصوير الحالة النفسية للكافر بصورة دقيقة كما أحسسنا بالحركات السريعة المتتابعة التي تصورها أحداث هذا المثل.

(١) انظر: أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، عبد الرحمن حبنكة (١٣٢- ١٣٣).

الخاتمة

أسجل في ختام هذا البحث أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها:

نتائج البحث:

١- إن الوحي لا يستمد إلا من مصدره الإلهي وكل طلب للمصلحة من غير الشرع الإلهي كطلب للماء من السراب.

٢- صورت دلالة ألفاظ المثل {والذين كفروا أعمالهم} أن أعمالهم لم تكن خالصة لوجه الله.

٣- أظهر البحث معالم منهجيته القرآن في الكشف الدقيق لأعمال الكافر، حيث وهبنا الله صورة واضحة وتوصيفا لنهاية أعماله خيبة أمله.

٤- دلت الآية ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ أن اتباع الظن من أسباب الضلال، فالظن وإن اعتقده أصحابه لن ينفع في قبول أعمالهم التي استندوا فيها إلى هوى نفوسهم، كما لم ينفع من جرى وراء السراب منه بشيء ، قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [سورة النجم: ٢٣].

٥- للقرآن الكريم وجوه من البيان التصويري يوظفها في تجسيد حال ومآل أعمال الكافر على وجه بالغ من الدقة والإحكام والتناسب وهو ما حققه لفظ «سراب» و«سريع الحساب».

٦- أظهر البحث حقيقة قرآنية قاطعة تعتبر أساسا من أسس التصور الإسلامي في قبول الأعمال عند الله.

التوصيات:

١- جعل الرؤية القرآنية هي الأساس في التعامل مع من يظهر أعمال الخير لغير وجه الله تعالى.

٢- الحذر الشخصي لكل مسلم من أن يقع في ذهنه وهم أن أعمال الكافر الحسنة مقبولة عند الله.

٣- أوصي بجمع الآيات المتعلقة بالأمثال والنظر في الجامع بينها للوصول إلى سر ضرب الأمثال في موضوعاتها دون غيرها.

٤- التوسع في الدراسات التطبيقية، ومن ذلك الدراسات التطبيقية في باب الأمثال سواء على مستوى الآية أو على مستوى الموضوع، أو على مستوى السور.

قائمة المراجع

١. الإتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
٢. اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١)، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم).
٣. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر : دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان عام النشر : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ مـ.
٤. أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، عبد الرحمن حبنكة، د.ط، د.ت
٥. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للإمام الفيروز أبادي ، تحقيق: محمد علي النجار،الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي.
٦. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.
٧. تصويبات في فهم بعض الآيات، صلاح الخالدي ت ١٤٤٣هـ د صلاح عبد الفتاح الخالدي، الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
٨. التصوير الفني في القرآن – سيد قطب، د.ت،د ط.
٩. التعريفات، الجرجاني ،علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.
١٠. تفسير ابن القيم تفسير القرآن الكريم (ابن القيم)، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٠ هـ.

١١. تفسير القرآن الثري الجامع، محمد الهلال ، د.ت، د.ط.
١٢. مقدمة في أصول التفسير، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٤٩٠هـ/ ١٩٨٠م.
١٣. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ.
١٤. تفسير حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري، الناشر: دار طوق النجاة، بيروت – لبنان،الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
١٥. تهذيب اللغة، الأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.
١٦. جامع البيان، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ)، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر- د عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
١٧. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٦م.
١٨. درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيميةتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
١٩. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.
٢٠. الشبكة العنكبوتية، المركز الدولي للأبحاث، الإعجاز العلمي، اعداد: أ. د. يحيى وزيري.
٢١. صحيح مسلم صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ هـ)،تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي

وشركاه، القاهرة(ثم صورته دار إحياء التراث العربي ببيروت، وغيرها) عام النشر: ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م.

٢٢. فتح الباري على صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م.

٢٣. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.

٢٤. القاموس المحيط مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٢٥. لسان العرب، للإمام ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. الأولى، ١٩٩٥م

٢٦. مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان (ت ١٤٢٠هـ)،الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٢٧. مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، دار التدمرية، الرياض،(٢٠١١م).

٢٨. مجموع الفتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية،جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله

٢٩. وساعده: ابنه محمد وفقه الله، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة – السعودية، عام النشر: ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

٣٠. معاني النحو: د. فاضل صالح السامرائي، الناشر: دار الفكر للطباعة – الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٣١. معترك الأقران في إعجاز القرآن، للإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

٣٢. معجم مقاييس اللغة، للإمام أبي الحسين ابن فارس، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون

٣٣. مفاتيح الغيب، الرازي أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

٣٤. المفردات في غريب القرآن، للإمام أبي القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني،

(ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ

٣٥. من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي (ت ١٣٨٤هـ)، الناشر: نهضه مصر – القاهرة، عام النشر: ٢٠٠٥م.

٣٦. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.